الاستعاريّ الذي به نفكر وبه نحيا *

The allegorical framework in which we think and exist

د لطفي الشيباني
كلية العلوم الانسانية والاجتماعيّة 9أفريل تونس
nacerlotfi1977@gmail.com

ملخص:

"الاستعاريّ الذي به نفكر وبه نحيا" عنوان مقال يتقصّى الاستعارة من منظور عرفانيّ تشكّلت لبناته في حضن الفلسفة التجريبيّة انطلاقا من كتاب "الاستعارات التي نحيا بها" لجورج لايكوف ومارك جونسون، وهو منظور يقوم على دحض التصوّرات السابقة التي تعتبر الاستعارة حكرا على النصوص الأدبية والشعريّة خاصة، وتنفي وجودها في الكلام العاديّ، فتعتبرها محسّنا لفظيّا وأسلوبا راقيّا يخص الألفاظ، ولا علاقة له بالتصورات، وهي بهذا الاعتبار تتأسس على المشابهة، ولا تتعدى كونها ظاهرة لسانيّة لغويّة قائمة على الانزياح عن التركيب العاديّ.

الكلمات المفاتيح: الاستعارة التصوريّة، ميدان تصوري هدف، ميدان تصوريّ مصدر.

Abstract:

"The allegorical framework in which we think and exist" is the title of an article exploring metaphor from a customary perspective whose beginnings were formed in the embrace of empirical philosophy from the book entitled "The metaphors we live in" by George Laikoff and Mark Johnson. It refers to a perspective based on refuting previous perceptions that consider metaphors as the exclusive preserve of literary and poetic texts in particular, and denying their presence in ordinary speech, as it considers them both a verbal refinement and an upscale language style, unaffected by perceptions. In this sense, they share a common foundation and do not transcend language.

Keywords; la métaphore conceptuelle, domain conceptuelle source, domain conceptuelle target.

*

تاريخ استلام البحث: 2023/09/05	تاريخ قبول البحث: 18/ 09 /2023	تاريخ النشر:18 /12/ 2023

مقدمة:

ليست الاستعارة في التصوّر العرفاني[1] آلية تعبير تتجسد في الكلام، وإنّما هي آليّة تفكير راسخة في الأذهان، وتسكن كلامنا العادي ما دمنا نفكر استعاريّا. فليست الاستعارة خاصيّة لغويّة، وإنّما هي خاصيّة عرفانيّة توجد في كل مجالات حياتنا اليوميّة وفي تفكيرنا في الأعمال التي ننجزها. فالنسق التصوريّ الذي يتحكم في تفكيرنا ويسيّر سلوكا ذو طبيعة استعاريّة. ولما كانت تصوراتنا تبنين طريقة تعاملنا مع العالم، وكيفيّة ارتباطنا بالناس ارتبط تفكيرنا وتعاملنا اليوميان بالاستعارة. فما هو مفهوم الاستعارة عرفانيّا؟ وماهي أنواعها؟

1. مفهوم الاستعارة العرفانية:

ننظر في حقيقة الفهم الجديد للاستعارة، ونبحث في شروط إنشائها ونتقصّى مرتكزاتها الفيزيائيّة والثقافيّة.

1.2 الاستعارة العرفانيّة فهم ميدان تصوّريّ من خلال ميدان تصوريّ آخر:

تسمح الاستعارة العرفانيّة بفهم ميدان تصوّريّ من خلال ميدان تصوريّ آخر، فنحاول القبض على تصوّر مجرد وأكثر تعقيدا وغير محدد بوضوح في تجربتنا من خلال تصورات أخرى أقل تعقيدا وأقل تجريدا، ونفهمها بوضوح، ويسمّى الميدان الأول ميدان الهدف (الحب)، ويسمى الميدان الثاني الميدان المصدر (الجنون والأسفار)، فالجنون والأسفار ميادين مصادر تجعلنا نقبض على تصوّر الحب الميدان الهدف.

لا تنفي حقيقة كون الاستعارة ظاهرة عرفانيّة تتّصل بالتفكير والتصوّر أهميّة اللغة باعتبارها مصدر الاستدلال على الكيفيّة التي يشتغل بها نسقنا التصوّريّ، ذلك أنّ الاعتماد على المعطيات اللغويّة يكشف طبيعته الاستعاريّة، فالاستعارات تبنين جزئيّا تصوّراتنا اليوميّة وتنعكس هذه البنينة في لغتنا اليوميّة فتقدم لائحة من الأقوال/التعابير الحرفيّة البسيطة أو المسكوكة التي تعدّ حالات خاصة للاستعارة. ولكن كيف يتأسس نسقنا التصوّري؟

2. 2. ماهية التصورات وكيفية بنينتها:

جزء كبير من نسقنا التصوّريّ مبنين استعاريّا، ومعنى ذلك أنّ جل التصوّرات تفهم جزئيّا بواسطة تصورات أخرى؛ (الحديث عن شيء بمفردات شيء آخر، الحديث عن مجال تصوّريّ بمجال تصوّريّ آخر)، ولكن هل توجد تصوّرات نفهمها دون بنينتها استعاريّا؟ إذا كانت الإجابة بالنفي، فكيف نفهم أيّ شيء على الإطلاق؟

أوّل التصوّرات التي نرشحها للفهم بشكل مباشر هي **"التصورات الفضائيّة البسيطة"** مثل **"فوق"**، وهو تصوّر نابع من تجربتنا الفضائيّة، فنحن نستعمل أجسادنا وفق برنامج حركيّ قد يغيّر من اتجاهنا **"فوق-تحت"** فنشاطنا الفيزيائيّ في العالم قائم حتى في نومنا على الاتجاه **"فوق- تحت"** وهو مركزيّ في نشاطنا الفيزيائيّ، إنّه برامجنا الحركيّة في اشتغالنا اليوميّ. وهذا البرنامج يتفاعل مع برامج أخرى: "وراء، داخل، خارج، أمام، قريب، بعيد..."

2. 3. المرتكزات الفيزيائيّة والثقافية للاستعارة:

إنّ بنية تصوراتنا الفضائيّة متجذرة في تجربتنا المجسدنة. ولا نفهم التصور "فوق" عن طريق تصوّر العلو المجرّد فحسب، بل كذلك باعتباره منبثقا من مجموع الوظائف الحركيّة التي لوضعنا المنتصب بالنظر إلى حقل الجاذبيّة. يرتبط النسق التصوّريّ بالتجربة الفضائيّة ويرتبط بالثقافة، فكل تجربة هي كليّا ثقافيّة، وإنّنا نمارس تجربة عالمنا بطريقة تكون بها ثقافتنا حاضرة في هذه التجربة. وكل تجربة تتطلّب مقتضيات ثقافيّة ومقتضيات فيزيائيّة.

إنّ تجاربنا العاطفيّة مرسومة أقل وضوحا ودقّة بالقياس إلى ما يمكن أن ننجزه بواسطة أجسادنا. وإذا كانت البنية التصوّرية الفضائيّة المرسومة بدقّة منبثقة من أنشطتنا الإدراكيّة، فإنّه لا تنبثق أيّ بنية من هذا النوع من فعلنا العاطفيّ وحده. توجد تعالقات نسقيّة بين عواطفنا وتجاربنا الجسديّة الإدراكيّة. ويتمّ رسم تصوراتنا التي تشتغل بها أجسادنا بشكل أدقّ عن طريق تصوّرات أخرى.

نحن نقوم بتجربة أنفسنا باعتبارها كيانات منفصلة عن باقي العالم، وباعتبارها أوعيّة لها داخل وخارج، وإنّنا ندرك أيضا الأشياء الخارجيّة باعتبارها كيانات، ولهذا الكيانات في إدراكنا داخل وخارج. فنحن ندرك ذواتنا باعتبارها مكونة من موارد، وندرك الأشياء باعتبارها مكوّنة من أنواع مختلفة من المواد، وندرك عن طريق البصر واللمس عددا كبيرا من الأشياء باعتبارها تمتلك حدودا جليّة، وعندما لا تتوفر حدود جليّة نسقط عليها حدودا، وذلك عن طريق تصوّرها باعتبارها كيانات وغالبا ما تكون هذه الكيانات أوعيّة.

تمثّل التجربة الفيزيائيّة شأنها في ذلك شأن التجربة العاطفيّة أو الذهنيّة أو الثقافيّة قاعدة التصوّرات الاستعاريّة. وعادة ما نتصوّر ما ليس فيزيائيّا من خلال ما هو فيزيائيّ. ولا نتحدّث استعاريّا بل نستعمل اللغة العاديّة اليوميّة، إلا أنّ طريقتنا في الحديث وفي الإدراك وفي عيش هذا الموقف مبنينة استعاريّا. فهل يعني هذا أنّ الاستعارة استحالت ظاهرة لغويّة وغدت ظاهرة عرفانيّة؟

نفهم التصورات بواسطة استعارات، فالاستعارة وسيلة أو آليّة لفهم التصورات وإدراكها. وتكون البنينة الاستعاريّة للتصورات بنينة جزئيّة بالضرورة تعكسها اللغة والمعجم. فتكون التصورات مبنينة استعاريّا بطريقة نسقيّة.

3. أنواع الاستعارات العرفانيّة:

لا نعني بأنواع الاستعارات التمييز في الاستعارات بين ما هو حرفيّ يوجد في الكلام العادي وما هو تخييليّ يختص به الكلام الشعريّ، حيث تكون علاقة الثانيّ بالأول بنيويّا قائمة على آليات التوسيع واستعمال الجوانب المهملة والخلق، وإنّما قصدنا إلى الاستعارة العرفانيّة، وهي استعارة تتصف بسمات بنيويّة، منها الاختلاف في نوع النشاط أوّلا والبنينة الجزئيّة ثانيّا، فمن البنينة الجزئية طرحت مسائل النسقيّة والانسجام الاستعاري وهو ما نعود إليه بالتحليل في مقال آخر، ومن مقياس اختلاف الأنشطة اختلفت الاستعارات أنواعا، وهو تصنيف خضع إلى مقياس اختلاف الأنشطة في الإسقاط الاستعاريّ ومقياس طبيعة ميدان المصدر. وهما مقياسان صنفت على ضوئهما الاستعارات إلى ثلاثة أنواع؛ البنيويّة والفضائيّة والانطولوجية.

3. 1. الاستعارة البنيويّة:

تقوم الاستعارة البنيويّة على بنينة استعارية لتصوّر من خلال تصوّر آخر، أو فهم ميدان تصوريّ من خلال ميدان تصوريّ آخر، أو فهم شيء ما بمفردات شيء آخر. وخير مثال على مفهوم بنينة الاستعارات لطريقة إدراكنا وتعاملنا، الاستعارة العرفانيّة "الجدال حرب" التي تختزل في لغتنا اليوميّة/تجربتنا التواصليّة اليوميّة أقوالا من قبيل:

1- لا يمكن أن تدافع عن ادعاءاتك.
2- لقد هاجم كل نقاط القوة في استدلاليّ.
3- أصابت انتقاداته الهدف.
4- لقد هاجم حجته.
5- لم انتصر عليه يوما في الجدال.
6- إذا اتخذت هذه الاستراتجيّة ستباد.
7- انهارت كل براهينك.

فأغلب ما نقوم به من جدال في خطاباتنا اليوميّة يبنينها تصوّر الحرب، بكيفيّة تنشط استعارة "الجدال حرب" بقوة في ثقافتنا التي نحيا بها. وهذه الخاصيّة تجعل من الاستعارة آليّة عرفانيّة تتيح لنا **فهم شيء ما بمفردات شيء آخر**، وتصيّر أنشطتنا التواصليّة مبنينة استعاريّا بتجربتنا الفيزيائيّة والتجريبيّة. ومعنى قولنا إنّ نسقنا التصوريّ مبنين ومحدّد استعاريّا أنّ مصدر الاستعارة ليس اللغة، وإنّما هو الفكر البشريّ بكيفيّة تكون الاستعارة اللغويّة إمكانا من الإمكانات التي يوفرها النسق التصوريّ الاستعاريّ.

ليس المقصود بنسقية اللغة إلا نسقيّة التصوّر الاستعاريّ، فالأقوال التي نستعملها في خطاباتنا اليوميّة استعارات لغويّة لأنها ترتبط بتصوراتنا الاستعاريّة بكيفيّة نسقيّة، فالاستعارة اللغويّة مشتقة من الاستعارة التي نفكر من خلالها ونحيا بها، و لهذا السبب كانت أقوالنا اللغويّة إعادة اكتشاف لطبيعة تلك التصوّرات قصد الوصول إلى فهم الطبيعة الاستعاريّة لسلوكاتنا.

فالاستعارة البنيويّة "الجدال حرب" تستعمل بصورة نسقيّة للحديث عن الجدال بمعجم الحرب، لأنّ جزءا كبيرا من تصوراتنا التي تقابل فكرة الحرب/المعركة ينطبق على فكرة الجدال، فتشتغل الاستعارات اللغويّة باعتبارها مدخلا لفهم الطبيعة الاستعاريّة للتصورات التي تبنين سلوكاتنا اليوميّة.

نحن نبنين سلوكاتنا وتعاملاتنا تصوريّا بواسطة الاستعارات. فمثلا استعارة "الزمن مال" استعارة بنيويّة تحقق الأقوال التاليّة:

8- إنّك تجعلني أضيع وقتي.

9- تجعلك هذه العمليّة تربح ساعات وساعات.

10-ادخر وقتك.

11-ليس لدي وقت أمنحك إيّاه.

12-وقتي ثمين لا أضيعه في هذه المهاترات.

13- كلفني إصلاح هذه المقالة أسبوعا.

14-ليس لدي وقت لأخسره.

15-لم يتبق وقت كثير.

16-عليك أن توفر وقتك.

17-وقتي ليس ملكي.

18-وقتي ثمين.

لما كان الزمن بضاعة ذات قيمة. تتحوّل الاستعارة التصوريّة إلى مرآة عاكسة لتطوّر الثقافة والمجتمع، فمفهوم الزمن يخضع لثقافة مجتمع ما (اختلاف اشتغال الاستعارة البنيويّة "الزمن مال" بين ثقافة أو مجتمع وغيره). فالاستعارات "الزمن مال"، "الزمن مورد محدود"، "الزمن بضاعة ثمينة" منسجمة/مناسبة لثقافة مجتمع يكون فيه المال بضاعة ثمينة، وهي نسق واحد مؤسس على التفريع المقوليّ "المال بضاعة ثمينة". التفريع المقولي نسق خاضع للعلاقات المقتضيّة بين الاستعارات:

"الزمن مال" الزمن ← مورد الزمن ← بضاعة ثمينة

"الزمن مال": استعارة تخصّص النسق التصوري برمته.

فالمثال طريقة تخصّص بها المقتضيات الاستعارات نسقا منسجما من التصوّرات الاستعاريّة، ومن الاستعارات اللغويّة التي تقابل هذه التصورّات. فالمقتضيات تلعب دورا مهما في النسقية التصوريّة والنسقية اللغويّة، فتتحكّم في النسقية الاستعاريّة برمتها إظهارا وإخفاء.

تمكننا النسقيّة من تحديد جزء من تصوّر ما بواسطة تصوّر آخر (تصوّر الجدال بواسطة تصوّر الحرب)، إذ يمكن لتصوّر استعاريّ معيّن أن يبأر مظهر واحد من مظهر عديد لتصوّر معيّن انسجاما مع الاستعارة، فاستعارة "الجدال حرب" تخفي مظاهر التعاون الموجودة في الجدال بما أنّ المجادل متبرع بوقته باعتباره بضاعة ثمينة، ويجهد نفسه من أجل إفهام، وهو ما يقتضي تبئير المظاهر العدوانيّة.

نأخذ مثال "استعارة المجرى" (Conduit Metaphor) باعتبارها استعارة تصوريّة، وتقتضي بنينة طريقتنا في الحديث عن اللغة الاستعارة المركبّة التاليّة: (الأفكار أو المعاني: أشياء/التعابير اللغويّة: أوعية/التواصل: إرسال)، فالمتكلّم يضع أفكارا داخل كلمات (أوعية)، ويرسلها (عبر مجرى) إلى مستمع يخرج الأفكار من الكلمات (أوعيّة)، وهي الاستعارة، تعكسها الأقوال التالية:

19- من الصعب أن تصلك أفكاري.

20- أنا قدمت لك هذه الفكرة.

21- حججك مفهومة وتصل إلينا بسهولة.

22- يصعب علي وضع أفكار في أقوال.

23- حاول القبض على الفكرة الجيدة بوضعها في كلمات.

24- لا تضع أفكارا في الجملة دون تنظيم.

25- المعنى يندس بين الكلمات.

26- تحمل أقواله أفكارا جيدة.

27- المقدمة حبلى بالأفكار.

28- تبدو أقوالك فضفاضة.

29- الجملة خالية من المعنى.

30- الفكرة مدفونة تحت أطنان من الفقرات.

وهذه الأقوال عادية نتواصل بها يوميّا، ويصعب الانتباه إلى وجود استعارة، ولكن عندما ندرك أنّ مقتضيات استعارة المجرى تتمثل في كون الأقوال أوعيّة للدلالات، نكتشف طبيعتها

الاستعاريّة. فالتصورات الاستعاريّة لا تمدنا إلا بفهم جزئيّ لما هو التواصل أو الجدال أو الزمن، وتخفي مظاهر أخرى. فالبنينة الاستعاريّة جزئيّة وليست كليّة. فمعنى قولنا تصوّر ما مبنين استعاريّا هو كونه مبنينا جزئيّا، أي يمكن توسيعه من نواح دون أخرى.

إذا كانت الاستعارة التصوريّة أو البنيويّة تقوم على بنينة التصورات استعاريّا بواسطة تصوّر آخر، فإنّه يوجد نوع من الاستعارات لا يبنين تصوّرا ما بواسطة تصوّر آخر، وإنّما ينظّم نسقا كاملا من التصوّرات المتعالقة.

3.2. الاستعارة الاتجاهيّة/الفضائيّة (Orientational metaphors):

الاستعارة الفضائيّة هي استعارة تتأسس على بنينة نسق تصوّريّ بواسطة تصوّر فضائيّ: (عال/ أسفل، داخل/ خارج، أمام/ وراء، فوق/ تحت، عميق/ سطحي، مركزي/ هامشي) ويتولد انطلاقا من وجودنا الجسديّ، إذ يشتغل اشتغال جسدنا في محيطه، فيعطي تصوراتنا اتجاها فضائيّا. فالاستعارات الفضائيّة ليست استعارات اعتباطيّة، وإنّما ترتكز على تجربتنا الفيزيائيّة الثقافيّة، وتختلف من ثقافة إلى أخرى، ومن مجتمع إلى آخر: (ثقافات المستقبل أمامنا/ ثقافات المستقبل وراءنا)، فالاستعارات المتصلة بالتفضيّة (Spatialization) لها مرتكزات فيزيائيّة وثقافية هي عبارة عن مقتضيات تكوّنها وتأويلها، لذلك نعرض لبعضها مبرزين مقتضياتها الفيزيائيّة والثقافيّة:

1) **استعارة "السعادة فوق والشقاء تحت":**

وتظهر في أقوال من قبيل:

31-أحسّ أنّني في القمة اليوم.

32-إنّني في قمة السعادة.

33-لقد رفعت معنوياتي.

34-سقطت معنوياتي.

35-التفكير فيها يرميني في هاوية.

36-أحسّ وكأنّني أهوي.

37-إنّه في الحضيض هذه الأيام.

38-إنّني منهار.

39-لقد سقطت في ما لا تحمد عقباه.

40-إنّه يغوص في الشقاء.

ولهذا التصوّر مقتضيان (المرتكزات الفيزيائيّة):

1) مقتضى وضعية السقوط: شقاء وانهيار.

2) مقتضى وضعية الارتفاع: سعادة.

2) الوعي فوق واللاوعي تحت:

41-انهض من نومك.

42-إنّه يغطّ في نوم عميق.

43-لقد سقط من التعب.

44-إنّه تحت ضغط حالة نفسيّة سيئة.

45-سقط في غيبوبة عميقة.

46-إنّه ينهض باكرا في الصباح.

مقتضيات هذا التصوّر الفيزيائيّة:

1) نوم الانسان: التمدّد.

2) اليقظة: القيام.

3) الصحة والحياة فوق والمرض والموت تحت:

47-إنّه في قمة العافية.

48-قام من بين الأموات.

49-أرقدته الحمى.

50-صحته في نزول/في تدهور مستمر.

51-سقط ميتا.

وتكون مقتضيات التصوّر الفيزيائيّة:

1) الصحة: انتصاب: فوق فيزيائي.

2) المرض الخطير: تمدّد فيزيائي.

3) الموت: وضع تحتي.

4) الهيمنة والقوة فوق/ الخضوع والضعف تحت:

52-إنّه يمارس سلطة عليه.

53-إنّني في قمة السلم.

54-إنّه في مرتبة عليا.

55-هذا الرجل في أوج سلطته.

56-لقد انقلب النظام.

57-إنّه تحت رحمتي.

58-إنّه في اللجنة العليا.

59-لقد كانت ترقيته سريعة.

60-قوته تفوق قوتي.

61-إنّه تحت مراقبتي

62-حكمه يقترب من الحافة.

63-إنّه في أسفل الدرك.

المقتضيات الفيزيائيّة لهذا التصوّر:

1) ارتباط الحجم عادة بالقوة الفيزيائيّة، والمنتصر في مبارزة ما يتبوأ القمة عادة.

5) الأكثر فوق والأقل تحت:

64-ارتفعت عائداتي في السنة الفارطة.

65-تقلّص حجم الأنشطة الفنيّة في هذه البلاد.

66-لقد نزلت أرباحه هذه السنة.

67-إن عدد الأخطاء التي يرتكبها منخفض جدا.

68-إذا شعرتم بالحرارة اخفضوا من قوة جهاز التدفئة.

المقتضيات الفيزيائيّة لهذا التصوّر: إضافة أشياء معيّنة إلى مجموعة أخرى يزيد علوها.

6) المستقبل فوق/الأمام:

69-إنّني اتطلّع إلى غد مشرق.

70-إنّنا نتّجه نحو مستقبل مبهم.

المقتضيات الفيزيائيّة لهذا التصوّر: رؤيتنا تتبع حركة صاعدة.

7) النخبة فوق والأغلبيّة تحت:

71-له وضعيّة راقيّة الآن.

72-سيظل يتسلّق إلى أن يصل إلى قمة الهرم.

73-إنّه في قمة المجد.

74-إنّه يتسلّق الدرجات بكلّ ثقة.

75-إنّه في أسفل السلم الاجتماعيّ.

76-لقد نزل وضعه الاجتماعيّ.

المقتضيات الفيزيائيّة والاجتماعيّة لهذا التصوّر: ارتباط الوضع الاجتماعيّ بالنفوذ، والسلطة الفيزيائيّة توجد في الأعلى.

8) **الجيّد فوق والرديء تحت:**

77- تبدو الأمور في تحسّن وارتفاع.

78- بلغنا مستوى عاليا في السنة الماضيّة، إلا أنّ الأمور لم تتوقف من ذلك الحين عن النزول.

79- لقد وصلنا إلى النقطة الأكثر انخفاضا.

80- لقد قامت بعمل من مستوى عال.

المقتضيات الفيزيائيّة لتصوّر الرفاه الشخصيّ: الأشياء الجيّدة توجد في الأعلى.

9) **الفضيلة فوق والرذيلة تحت:**

81- إنّه رجل ذو مشاعر راقيّة.

82- إنّه فوق كل الشبهات.

83- إنّه إنسان منحط وساقط.

84- هذه الأمور تسقطك من عيون الناس.

85- لن أنزل إلى هذا المستوى/ارتفع فإنّ الأسفل مزدحم.

86- لقد سقط في أرذل الأخلاق.

المقتضيات الفيزيائيّة والاجتماعيّة لهذا التصوّر: إضافة استعارة الجيّد فوق انطلاقا من الضوابط التي أقامها المجتمع.

10) **العقلاني فوق والوجداني تحت:**

87- سقط حديثنا إلى مستوى الانفعال ولكنّني رفعته إلى مستوى عقلانيّ.

88- أبعدنا أحاسيسنا فوصلنا إلى نقاش من مستوى ثقافيّ عال.

89- لم يكن باستطاعته التعالي عن انفعالاته.

المقتضيات الفيزيائيّة والاجتماعيّة لهذا التصوّر: تصور الانسان متعال على الحيوان في المحيط الفيزيائيّ بقدراته على التعليل والعقلنة: استعارة الهيمنة فوق هي إذن أساس استعارة الانسان فوق، وبالتالي هي أساس استعارة العقلاني فوق.

إذا كان ذلك، كانت جلّ تصوّراتنا الأساسيّة منظّمة بواسطة استعارات ذات توجه فضائيّ. ويكون لكل استعارة فضائيّة نسق داخليّ منظّم، بواسطة مقتضيات تكوينها الفيزيائيّ والاجتماعيّ والثقافيّ، ويكون لها نسق خارجيّ هو مقتضيات انسجامها مع استعارات أخرى، فاستعارة "السعادة فوق" مثلا تحدّد نسقا منسجما من الاستعارات، وليست مجموعة من الحالات المعزولة الاعتباطيّة، وذلك لأنّ النسق يفقد اتساقه لو كانت جمل مثل: "إنّني في القمة"، تعني "أنا سعيد"، في حين أنّ جملة "ارتفعت معنوياتي" تعني "أنا حزين".

يقودنا هذا إلى حقيقة وجود نسق خارجيّ يتحكّم في الاستعارات الفضائيّة، فيرسّخ انسجامها في شكل عنقوديّ يخضع إلى استرسال تكوينيّ دلاليّ، فمثلا، تعطينا استعارة "الجيّد فوق" توجّها نحو الأعلى، داخل فكرة الرفاه والعادة، وينسجم هذا الاتجاه مع استعارات: السعادة فوق/الصحة فوق/الحياة فوق/النفوذ فوق، وتنسجم استعارة "النخبة فوق" مع استعارة" النفوذ فوق".

تبرهن هذه النسقية الداخليّة والخارجيّة على تجذّر استعاراتنا الفضائيّة في تجربتنا، وتؤكد أهمية الوعي بدور المقتضيات الفيزيائية والثقافية في فهم تصوّر ما فهما استعاريّا. فللاستعارات الفضائيّة أسس/مقتضيات فيزيائيّة واجتماعيّة مختلفة، ترتبط بجسدنا واشتغاله في محيطه، وهي تستوجب انسجام النسق الشامل، فالسعادة متّصلة فزيائيّا بابتسامة، وشعور عام بالحرارة العارمة، وهي وضعيّة تشكّل أساس استعارة "السعادة واسعة والحزن ضيّق": (أنا أطير، اختنق)، إلا أنّ الاستعارة المهيمنة في ثقافتنا هي "السعادة فوق"، وتمثّل نسقا منسجما مع استعارتيْ "الجيّد فوق/الصحة فوق".

فيمكن مثلا للاستعارة الفضائيّة أن تكون جزءا من تصوّر معيّن، بكيفيّة يصعب علينا أن نتخيّل أنّه بإمكان استعارة أن تبنين هذا التصوّر. وفي حالات أخرى مثل حالة السعادة، فإنّ التفضيّة تكون أقل وضوحا، فهل يوجد تصوّر السعادة في استقلال عن استعارة "السعادة فوق"؟ أم أنّ الاستعارة "تحت-فوق" المنسحبة على السعادة هي نفسها جزء من التصوّر؟ نعتقد أنّ الاستعارة جزء من التصوّر في إطار نسق تصوّري معيّن، فاستعارة "السعادة فوق" تضع السعادة في نسق استعاريّ منسجم، وتستمد جزءا من دلالتها بدورها من هذا النسق. ويكون مرجع مسألتي النسقيّة والانسجام في الاستعارات إلى المقتضيات.

من جهة أخرى ترتكز التصوّرات العقليّة العلميّة على استعارات ذات أساس فيزيائيّ/ثقافيّ، فالإغراء الحدسيّ الذي تمارسه علينا نظريّة علميّة ما، سببه ملاءمة استعاراتها لتجربتنا. لكن يجب أن نشير إلى حقيقة اختلاف الاستعارات الفضائيّة باختلاف التجارب الثقافيّة والفيزيائيّة، إذ لا يمكن في أحيان كثيرة التمييز داخل استعارة معيّنة، بين الأساس الفيزيائيّ والأساس الثقافيّ. فما هي الأسس التجريبيّة للاستعارات؟

نقصد بالمقتضيات التجريبيّة الأسس التجريبية التي تتأسس عليها الاستعارة، وتضمن نسقيتها وانسجامها، فالمقتضى التجريبيّ أساس مهم في فهم الاستعارة وتمثيلها بصورة كافيّة. فمثلا يختلف المقتضى التجريبيّ لاستعارة" الأكثر فوق"، عن استعارة "السعادة فوق"، أو "العقلانيّ فوق"، فما هو مشترك في جميع هذه الاستعارات هو تصوّر العلوّ، وما هو مختلف يتمثل في التجارب التي تبنى عليها هذه الاستعارات. ولا يعود ذلك إلى وجود تصوّرات مختلفة للعلوّ، ولكن لأنّ البعد العموديّ باعتباره مقتضى مسجّلا في تجربتنا بطرق شتى، وهو ما ينتج استعارات مختلفة.

وبالوعي بالمقتضيات التجريبيّة للاستعارات ندمجها داخل تمثيلات، فعوض الاحتفاظ مثلا بتمثيل من نوع "الأكثر فوق"، أو" العقلانيّ فوق"، فإنّه يمكن أن تكون لدينا علاقة أعقد. فطرفا الاستعارة يترابطان بواسطة الأسس التجريبيّة، باعتبارها مقتضيات تجعل الاستعارات أداة للفهم، فالأسس المقتضيات تلعب دورا مهما في اشتغال الاستعارات غير المتناسقة، لأنّها تنبني على تجارب مختلفة. ونأخذ مثال "استعارة المجهول فوق والمعلوم تحت":

90- فكرتك تحلّق في السماء.

91- لقد طرح الموضوع للنقاش.

لهذه الاستعارة مقتضى تجريبيّ، يسترسل مع استعارة "الفهم هو الإمساك بالأشياء والقبض عليها".

92- لم أتمكن من الإمساك بفكرتك أو القبض عليها.

استعارة "المجهول فوق والمعلوم تحت"، تنسجم مع استعارة" الفهم هو الإمساك"، ومع استعارات من قبيل "الجيد فوق" و"المنتهي فوق".

نفترض استرسال المنتهي والمعلوم والمنتهي والمجهول، ولكن الأمر ليس بهذه البساطة، لماذا؟ لأنّه في الاستعارات العموديّة تختلف استعارة "المجهول فوق"، في مستوى الأسس التجريبيّة عن استعارة "المنتهي فوق".

93- إنّك تحلّق في السماء / كلام غير مفهوم لماذا؟

لأنّك تستعمل الجزء الأول من الاستعارة وهو "المجهول فوق".

94- لقد طرحت الموضوع للنقاش.

أصبح الموضوع في متناول اليد بعد أن تم طرحه أرضا، فتستعمل الجزء الثاني من الاستعارة وهو "المعلوم تحت".

تشكل القيم الثقافيّة مع التصوّرات الاستعاريّة التي نحيا بها نسقا منسجما. وليست كل القيم الثقافيّة التي تكون منسجمة مع نسق استعاريّ ما موجودة بالفعل، ولكن ذلك لا ينفي القول: إنّ تلك القيم التي توجد، وتكون متجذرة في ثقافتنا، تكون منسجمة مع النسق الاستعاريّ.

إذا كانت الاستعارات الفضائيّة قد وفّرت لنا أساسا ثريّا لفهم التصوّرات بواسطة الاتجاه، فإنّ الاتجاه غير كاف لفهم تجربتنا مع الأشياء، لأنّها تجربة تحتاج أساسا يتجاوز الاتجاه البسيط، إلى أساس يمكننا من فهم تجاربنا عن طريق الأشياء والمواد، باختيار عناصر تجربتنا ومعالجتها، باعتبارها كيانات معزولة أو مواد من نوع واحد. ويسهل تعين تجربتنا باعتبارها أشياء عمليّة، ومقولتها باعتبار أنّ المقولة ضروريّة لتحقيق بعض حاجاتنا.

3. 3. الاستعارات الانطولوجيّة:

الاستعارات الانطولوجيّة هي استعارات يخصّص فيها الشيء الفيزيائيّ كما لو كان شخصا، وهي استعارات تسمح لنا بفهم عدد كبير ومتنوّع من التجارب المتعلقة بكيانات غير بشريّة، عن طريق الحوافز والخصائص والأنشطة البشريّة. وإذا كانت تجربنا الأساسيّة للتوجّه الفضائي تتيح استعارات فضائيّة، فإنّ تجاربنا مع أجسادنا والمحيط الفيزيائيّ حولنا تمثل مصدرا لأسس الاستعارات الانطولوجيّة. فنفهم الأحداث والأنشطة والأحاسيس والأفكار باعتبارها كيانات ومواد.

تستعمل الاستعارات الانطولوجيّة لحاجات مختلفة، وما اختلاف الاستعارات إلا اختلاف في الحاجات وفي المقتضيات. والاستعارة الانطولوجيّة أنواع:

- **استعارات الكيان والمادة:**

م: "استعارة التضخّم ⟵ تجربة "التضخّم كيان"

تعبر عنها الأقوال التاليّة:

95- يخفض التضخّم مستوى عيشنا.

96- إذا تفاقم التضخّم لن نتمكن من العيش.

97- يجب محاربة التضخّم.

98- يضطرنا التضخّم إلى اتخاذ بعض الإجراءات.

99- يلتهم التضخم جزءا كبيرا من عائداتنا.

100- شراء قطعة أرض هو الطريقة الوحيدة للاحتماء من التضخّم.

101- يقلقني التضخّم كثيرا.

استعارة التضخّم استعارة انطولوجيّة ضروريّة في محاولتنا تقديم تحليل عقلانيّ لتجاربنا. وتتسع مجالات الاستعارات الانطولوجيّة، وتتنوّع الاستعارات مع تنوّع حاجاتنا، وتتنوّع معها الأقوال، وتسمح لنا بأن نحيل أو نكمم ونعيّن المظاهر والأسباب والأهداف، ونحفّز الأنشطة:

1) **التي تحيل إليها:**

102- خوفي من الحشرات يجعل زوجتي كالمجنونة.

103- لقد كانت غنيمة رائعة (إذا قصدنا بها شيئا مجرّدا).

104- إنّنا نعمل من أجل السلام.

105- يعتبر الطرف المعتدل قوة صامتة في السياسة الأمريكيّة.

106- شرف وطننا في خطر بسبب هذه الحرب.

1) **أن نكمّم:**

107- يتطلّب إنهاء هذا الكتاب قدرا كبيرا من الصبر.
108- يوجد كثير من الحقد في العالم.
109- لهذا الرجل سلطة سياسيّة كبيرة في بريطانيا.
110- لمسنا عندهم ترحابا كبيرا.
111- لهذا الشخص ديناميّة كبيرة وتقنيّة مدهشة في لعب الكرة.

2) أن نعيّن المظاهر:

112- لقد كشف تحت ضغط الأحداث عن الجانب السيء في شخصيته.
113- وحشيّة الحرب تجعلنا غير إنسانيين.
114- لا أتمكن من مسايرة إيقاع الحياة الحديثة.
115- لقد تدهور الجانب النفسيّ من صحته.
116- لم تتلذذ قط بنشوة النصر في الفيتنام.

3) أن نعيّن الأسباب:

117- ثقل مسؤولياته سبب انهياره.
118- قام بذلك من جراء غضبه.
119- تأثيرنا في العالم تراجع نظرا إلى سوء أخلاقنا.
120- كلفهم خلافهم الداخليّ الهزيمة.

4) أن نحدّد الأهداف ونحفّز الأنشطة:

121- لقد جاء إلى نيويورك بحثا عن المال والجاه.
122- هذا ما يجب أن تقوم به لتأمين الضمان المالي.
123- إنّني أغيّر نمط حياتي كي أعثر على السعادة الحقيقيّة.
124- تهرع المخابرات الأمريكيّة حيال المسّ بأمن الدولة.
125- لقد رأت في الزواج الحلّ لمشاكلها.

ومثلما هي الحال في الاستعارات الفضائيّة، لا يتمّ الانتباه إلى الطابع الاستعاريّ لهذه الأقوال أو التعابير. ومن أسباب ذلك، أنّ الاستعارات الانطولوجيّة - شأنها في ذلك شأن الاستعارات الفضائيّة - تخدم مجموعة من الحاجات، كأن نحيل أو نكمّم. ولا يسمح لنا **مجرّد اعتبار شيء غير فيزيائي كيانا أو مادة أن نفهم منه شيئا مهما.** فالاستعارات الانطولوجيّة بديهيّة وحاضرة في فكرنا.

بإمكاننا أن نطوّر الاستعارات الانطولوجيّة مثل: "تطوير الاستعارة الانطولوجيّة **"الذهن آلة".**

126- عقلي غير قادر على الاشتغال الآن.

127- لقد صدأ عقليّ.

128- اشتغلنا في هذا المشكل طوال اليوم والآن نفذت طاقتنا.

129- العجلات لا تدور.

"الذهن شيء مدهش"

130- أصبح لزاما علينا معاملته بحذر منذ موت زوجته.

131- لقد انهار خلال التحقيق.

132- لقد حطمته هذه التجربة.

تعطي التعابير نماذج استعاريّة مختلفة عما هو الذهن في علاقته بالأشياء بكيفيّة تسمح لنا بالتركيز على مختلف مظاهر التجربة الذهنيّة. فاستعارة الآلة تجعلنا نتصوّر الذهن باعتباره آلة في مستوى الاستعمال والفاعليّة والإنتاجيّة، وتسمح لنا بالحديث عن القوة والصلابة والضعف. ولا تسمح استعارة "الشيء الهشّ" بالحديث عن الصلابة النفسيّة.

133- أصابه اختلال (الذهن آلة).

134- أصابه انهيار (الذهن شيء هشّ).

نلاحظ اختلاف الاستعارتين في تبئير نفس المظهر في التجربة الذهنيّة.

- **استعارة الوعاء:**

الفرد وعاء له مساحة محدودة، وله توجّه داخل / خارج **يسقطه** على أشياء فيزيائيّة أخرى محدودة المساحات، ومن ثمة تعتبر الأشياء كالغرف والمنازل أوعيّة لها داخل وخارج، والتنقل من غرفة إلى أخرى تنقل من وعاء إلى وعاء.

تصوّر الحقل البصريّ وعاء، وهي استعارات طبيعيّة تنتج عن كوننا حين ننظر إلى إقليم معيّن (قطعة أرض، مساحة مكسوة...)، فإن مجال رؤيتنا يقيم حدودا لهذه الأقاليم، وهو الجزء الذي نتمكن من رؤيته. وبما أن الفضاء الفيزيائيّ المحدود يشكل وعاء، وإنّه يوجد ترابط بيم مجال رؤيتنا وهذا الفضاء الفيزيائيّ، فإنّ التصوّر الاستعاريّ "مجالات الرؤية أوعيّة" ينتج بصورة طبيعيّة، لهذا نقول عادة:

135- دخلت السفينة في مجال رؤيتي الآن.

136- لقد غدا خارج حدود رؤيتي.

137- إنّه على مرمى البصر.

138- لا يمكن أن أراه، فالشجرة تخفي مجال رؤيتي.

139- انظر إنّه يتوسّط مجال الرؤية الآن.

تستخدم الاستعارات الانطولوجيّة **لفهم الأحداث والأعمال والأنشطة والحالات**، لأنّنا نتصوّر الأحداث والأعمال استعاريّا باعتبارها أشياء، والأنشطة باعتبارها مواد والحالات باعتبارها أوعيّة، **فالسباق** مثلا زمانا ومكانا ننظر إليه باعتباره شيئا أو وعاء يوجد فيه المتسابقون (أشياء)، وتوجد فيه أحداث (انطلاق ووصول). فهو يعتبر استعاريّا أشياء بما أنّه يوجد فيه نشاط، ويعتبر استعاريّا مادة. وتعبر الأقوال التالية عن السباق استعاريّا:

140- هل ستكون في السباق يوم الأحد (السباق شيء/ وعاء).

141- هل ستذهب إلى السباق؟ (السباق شيء).

142- هل شاهدت السباق؟ (السباق شيء).

143- لقد كان الوصول في السباق هائلا (الوصول حدث داخل شيء/مادة).

144- لقد عدا جيدا في هذا السباق (العدو مادة/ وعاء).

145- لم أتمكن من الحفاظ على السرعة حتى النهاية (الإسراع مادة).

146- وجدت نفسي بدون قوة في وسط السباق (السباق شيء/ وعاء).

147- إنّه خارج السياق الآن (السباق شيء/ وعاء).

يتمّ النظر إلى الأنشطة استعاريّا **باعتبارها مواد وأوعيّة.**

148- في غسل النوافذ أصبّ ماء كثيرا على المارة.

149- كم نافذة غسلت حتى الآن؟

150- وخارج غسل النوافذ، ماذا أفعل؟

في رأيي أو في نظري يرتبطان استعاريّا بمجال الرؤية، وهما تبنيان بشكل واضح أن المجال البصري وعاء، إذ يرتبط الرأي والنظر بالحرف "في"، الذي يعيّن شيئا له حدود داخل وخارج.

151- كيف ولجت غسل النوافذ.

152- لقد اكتسبت تجربة كبيرة في غسل النوافذ.

فالأنشطة أوعيّة تحتوي الأعمال والأنشطة تدخل فيها، إنّها تتصوّر أيضا باعتبارها أوعيّة، بالنسبة للطاقة والمواد التي تقتضيها الأنشطة، ومنتوجاتها الفرعيّة التي تدخل فيها.

153- لقد صرفت طاقة كبيرة في غسل النوافذ.

154- لقد أحسست بسعادة كبيرة من غسل النوافذ.

كما تتصوّر عددا متنوّعا من الحالات باعتبارها أوعيّة:

155- إنّه في حالة خيبة وفقدان أمل.

156- إنّه في سعادة لا توصف.

157- لقد خرج من حالة فقدان الوعي.

158- إنّه يعيش في قلق دائم.

159- خرجت من حالة اليأس.

4. خاتمة:

خلاصة القول إنّنا عرضنا في هذا المقال تبسيطا لسانيا عرفانيّا للمنظور الجديد للاستعارة، انطلاقا من تصور يعتبرها آلية في التفكير تحكم نسقنا التصوّريّ، وينفي كونها آلية تعبير تعكسها لغتنا العاديّة، ويقر بحقيقة كون الاستعارة الموجود في اللغة إنجازا للاستعارة الساكنة في العرفان. وطرحنا أنواعها، ومثلنا لها بأمثلة، وأشرنا من حين إلى آخر إلى بعض سماتها البنيويّة؛ كالنسقيّة والانسجام، ودور المقتضيات الفيزيائيّة والثقافية في تكوين الاستعارة وتأويلها، وهي سمات أولاها الباحثان جورج لايكوف ومارك جونسون عناية خاصة، كشفت عن تغييبهم الجانب التداوليّ في دراسة، وهو ما فتح المجالات لدراسات طوّرت البحث العرفانيّ في "الاستعاريّ الذي به نفكر وبه نحيا".

الهوامش:

[1] - نعتمد في تحبير هذا المقال على كتاب جورج لايكوف ومارك جونسو: الاستعارات التي نحيا بها، ترجمة عبد المجيد الجحفة، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى، 1996.

Lakoff(G) and Johnson(M) ;; " Metaphors we live by ", The University of Chicago Press Chicago and London,1980.

قائمة المراجع:

1) جورج لايكوف ومارك جونسو: الاستعارات التي نحيا بها، ترجمة عبد المجيد الجحفة، دار توبقال للنشر، ط 1، 1996.

2) محمد الصالح البوعمراني: الاستعارات التصوّرية وتحليل الخطاب السياسيّ، دار كنوز المعرفة للنشروالتوزيع، ط 1، عمان، الأردن، 2015.

3) الزناد، الأزهر، نظريات لسانية عرفانيّة، الدار العربية للعلوم ناشرون، دار محمد علي الحامي للنشر، منشورات الاختلاف، 2010.

4) Lakoff (G) and Johnson (M); "Metaphors we live by", The University of Chicago Press Chicago and London, 1980.

5) Kovecse, (Z); (2010), «Metaphor, A Practical Introduction; OXFORD Univercity Press, Second Edition.